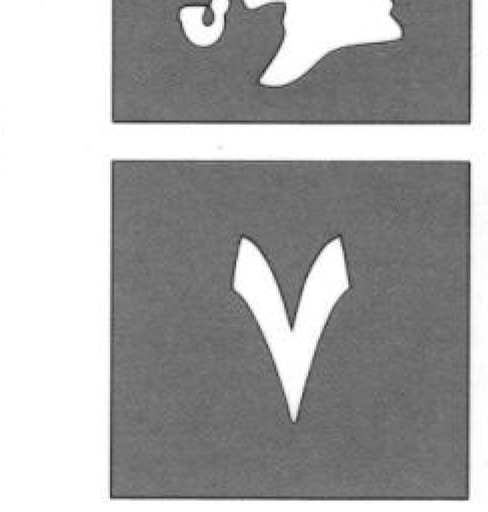




تأليف:
آرثر كونان دويل

مغامرة الجَوهرة الزّرقاء

الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية





مغامرات
شيرلوك هولمز
(٧)

مغامرة الجَوهرة الزّرقاء

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد كانون الثاني (يناير) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

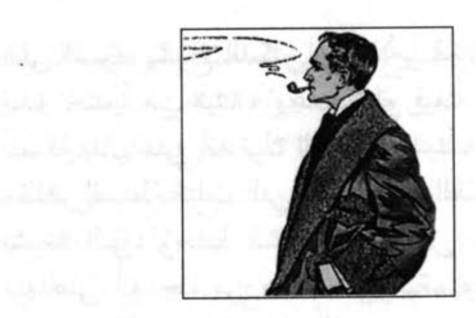


وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوِير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،

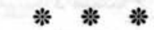


وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.





قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

مغامرة الجَوهرة الزّرقاء

زرت صديقي شيرلوك هولمز في صباح يوم عيد الميلاد فوجدته يرقد باسترخاء على الأريكة مرتدياً رداءه المنزلي وقد وضع غليونه في متناول يده اليمنى، وعلى مقربة منه كومة من صحف الصباح المجعَّدة التي بدا واضحاً أنها قد قُرئت حديثاً، وبجوار الأريكة كان كرسي خشبي عُلِّقت على زاوية مسنده قبعة رثّة قذرة من اللبّاد القاسي وقد ساءت حالتها من كثرة الاستعمال وبدت عليها الشقوق في أماكن عديدة، وعلى مقعد الكرسي عدسة مكبِّرة ومِلقط استنتجت منهما أن القبعة عُلِّقت بهذا الشكل بغرض فحصها.

قلت: أنت مشغول فيما يبدو؛ هل قاطعتك؟

- لا، على الإطلاق، بل أنا سعيد لأن لي صديقاً أستطيع أن أناقش معه ما توصلت إليه من نتائج. إنه أمر تافه تماماً.

ثم أشار إلى القبعة القديمة وأكمل قائلاً: ولكن بعض النقاط المتصلة به لا تخلو من الإثارة، وهي

ذات دلالة أيضاً.

كان الجو في لندن قد برد برداً شديداً وانتشر الصقيع وراحت حُبَيبات الثلج تضرب النوافذ بكثافة، فجلست على المقعد المريح ومددت يدي أمام نار المدفأة المتأججة، ثم قلت: هل أفترضُ أن هذا الشيء بشكله القبيح مرتبط بشكل ما بإحدى قصص الجريمة، وأنه الدليل الذي سيرشدك إلى حل اللغز والقبض على مرتكب الجريمة؟



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

قال هولمز ضاحكاً: لا، لا توجد جريمة، بل هي إحدى تلك الحوادث الصغيرة الغريبة التي تحدث عندما يعيش أربعة ملايين إنسان يزاحم أحدُهم الآخرَ داخل حيّز ضيق لا تتجاوز مساحته بضعة أميال مربَّعة. وما بين الفعل وردّ الفعل لمثل هذا الحشد الكبير من البشر يمكنك أن تتوقع حدوث أي مزيج محتمل من النتائج والكثير من القضايا الصغيرة التي قد تكون غريبة دون أن تكون إجرامية، وقد شهدنا معاً مثل هذه القضايا من قبل.

قلت: بل الكثير منها، فمن بين القضايا الستّ الأخيرة التي أضفتها إلى المذكرات كانت ثلاث منها خالية تماماً من أي جريمة بالعرف القانوني.

- تماماً. أعلم أنك تلمّح إلى محاولتي استعادة أوراق أيرين آدلر وإلى قضية الآنسة ماري سَذرْلاند الغريبة ومغامرة الرجل ذي الشفة الملتوية. حسناً، لا أشك في أن هذه القضية البسيطة ستدخل ضمن هذه الفئة. هل تعرف بيترسون؟

- نعم، البوّاب الذي يرتدي ملابس رسمية.

- إن هذه الغنيمة تخصه.

- أهي قبعته؟

- لا، بل هو الذي وجدها، أما صاحبها فغير معروف. أناشدك أن لا تنظر إليها كقبعة قديمة، بل كمشكلة تحتاج إلى تفكير. بدايةً سأخبرك بطريقة وصولها إلى هنا؛ لقد وصلت صباح هذا اليوم بصحبة وَزّة سمينة، ولا أكاد أشك في أنها تُشوى في هذه اللحظة على نار مدفأة بيترسون! والوقائع هي كالتالي: بعد منتصف الليلة الماضية كان بيترسون (وهو رجل أمين جداً كما تعرف) عائداً من حفل سمر بسيط، وكان يمشي في طريق توتنهام كورت باتجاه منزله حين رأى أمامه في ضوء مصباح الغاز رجلاً طويلاً يمشي وهو يترنّح قليلاً ويحمل فوق كتفه وَزّة مذبوحة بيضاء اللون. وحين وصل إلى ركن شارع غوذْج اندلع شجار بين هذا الغريب وبين مجموعة صغيرة من الأشرار، وضرب أحدهم قبعته وأسقطها فرفع الرجل عصاه ليدافع عن نفسه، وحين حرّكها فوق رأسه حطم نافذة محل كانت خلفه، فتقدم بيترسون مسرعاً ليحمي الغريب من مهاجميه، ولكن الرجل فوجئ بكسر النافذة وبرؤية شخص يسرع باتجاهه وهو يرتدي الملابس الرسمية، فأسقط وَزّته وأطلق ساقَيه للريح مختفياً

في متاهة من الشوارع الضيقة الواقعة خلف طريق توتنهام كورت، كما هرب الأشرار أيضاً حينما شاهدوا بيترسون. وهكذا تركوا له ميدان العراك وأيضاً غنائمَ النصر في صورة هذه القبعة القديمة، بالإضافة إلى وزّة ممتازة للغداء!

- ولكنه كان ينبغي أن يعيدهما إلى صاحبهما.

- هنا تكمن المشكلة يا صديقي العزيز؛ فقد وجدنا بطاقة مربوطة بساق الطائر اليسرى مطبوعاً



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

عليها: «هدية للسيدة هنري بيكر» كما أمكننا في الحقيقة قراءة الحرفين «هـ ب» على بطانة هذه القبعة، لكن المشكلة هي أن الذين يحملون اسم عائلة بيكر يُعَدّون بالآلاف، والذين يتسمَّون باسم هنري بيكر في مدينتنا مئات، وهذا يجعل من الصعب إعادة أية أغراض ضائعة لأي منهم.

- ماذا فعل بيترسون إذن؟

- لقد أحضر لي كلاً من الوزّة والقبعة لعلمه بأنني أهتم بالقضايا صغيرها وكبيرها على السواء. وقد احتفظنا بالوزّة حتى هذا الصباح عندما ظهرت عليها -بالرغم من الصقيع الطفيف- علامات تدل على أن من الأفضل أكلها بلا تأخير، فأخذها الشخص الذي وجدها لينفذ فيها قدَرها المحتوم، بينما احتفظت أنا بقبعة السيد المجهول الذي فقد عشاءه.

- ألم ينشر إعلاناً؟

- لم يفعل.

- وما هو الدليل الذي سيرشدك إلى هوّيته إذن؟

- عن طريق ما نستطيع استنتاجه فقط.

- من قبعته؟

- تماماً.

- من المؤكد أنك تمزح، فما الذي تستطيع استنتاجه من هذه القبعة القديمة المهلهلة؟

- ها هي عدستي، وأنت تعرف أساليبي في البحث، فما الذي تستطيع جمعه بنفسك عن الخصائص الفردية للرجل الذي كان يرتدي هذا الشيء؟

أمسكت بالقبعة الرثّة في يدي وقلّبتها بانزعاج. كانت قبعة سوداء عادية جداً من الشكل الدائري المألوف، وقد تصلّبت وبدت في حالة سيئة من كثرة اللبس، وكانت بطانتها من الحرير الأحمر الذي بهت لونه كثيراً، ولم يكن عليها اسم صانعها، ولكن -كما قال هولمز- كانت الحروف الأولى من اسم الرجل «هـ ب» مكتوبة بخط سيّئ على أحد الجوانب، كما أنها كانت مثقوبة عند الحافة لوضع رباط تثبيت عليها، رغم أن الرباط المطاطي نفسه كان مفقوداً. أما عن الباقي فقد كانت مهلهلة

ومتربة جداً وعليها بقع في أماكن متعددة، بالرغم من وجود محاولات -على ما يبدو- لطمس البقع الباهتة بواسطة تلطيخها بالحبر.

قلت وأنا أعيدها إلى صديقي ثانية: لا أستطيع رؤية شيء ذي قيمة.

- على العكس يا واطسون؛ بإمكانك أن ترى كل شيء ولكنك تفشل في تحليل ما تراه تحليلاً منطقياً، فأنت متردد جداً في استنتاجاتك.

- إذن أرجو أن تخبرني بما تستطيع استنتاجه من هذه القبعة.

رفع هولمز القبعة إلى الأعلى وحدق إليها بطريقته المتفحّصة الغريبة التي كان يتميز بها وقال: قد توحي هذه القبعة بأقل مما يجب، ولكنها تقدّم بعض الاستدلالات المميزة جداً والبعض الآخر الذي يمثل احتمالية كبيرة على الأقل؛ فالرجل كان على درجة عالية من الثقافة، وهذا واضح من مظهرها الخارجي بالطبع، كما أنه كان ثرياً خلال السنوات الثلاث الماضية، وإن كان يمرّ الآن بأوقات عصيبة. وقد كان يتمتع بالحكمة، وإن قلّ ذلك الآن

من ذي قبل، مما يدل على انحطاط معنوياته الذي صاحب فقدانه لثروته، وهذا يشير إلى مؤثرات سيئة، وقد يدل أيضاً على حقيقة أن زوجته قد توقفت عن حبه.

- عزيزي هولمز!

مضى في الكلام متجاهلاً اعتراضي وهو يقول: إلا أنه قد احتفظ ببعض من احترامه لنفسه على أية حال، وهو يعيش حياة خاملة ولا يخرج إلا قليلاً، كما أن لياقته البدنية سيئة، وهو في منتصف العمر، وله شعر أشيب قام بقصّه خلال الأيام القليلة الماضية، وهو يدهنه بزيت الليمون المركز. هذه هي أوضح الحقائق التي يمكننا استنتاجها من القبعة، وأيضاً من المحتمل بدرجة كبيرة أنه يعيش في بيت لا تصله تمديدات الغاز.

- إنك تمزح بالتأكيد يا هولمز.

- لا، على الإطلاق. هل من الممكن أنك حتى الآن وبعد أن أعطيتك كل هذه النتائج لم تتمكن من فهم طريقتي في الوصول إليها؟

- أعترف بأنني غير قادر على فهمك. على

سبيل المثال كيف تمكّنت من استنتاج أن هذه القبعة لرجل مثقف؟

لكي يجيبني وضع هولمز القبعة على رأسه بسرعة فغطت جبهته واستقرت على أنفه، وقال: إنها مسألة سعة تكعيبية، فمثل هذا الرأس الكبير لا بد أن يحتوي على شيء.

- وماذا إذن عن فقدانه لثروته؟

- القبعة عمرها ثلاث سنوات، فهذه الحواف المستوية ذات الحرف الملتوي كانت دارجة في ذلك الوقت، كما أنها قبعة من نوع ممتاز جداً. انظر إلى شريط الحرير المضلّع حول قبة القبعة وإلى بطانتها الممتازة، وبما أن الرجل كان يستطيع شراء مثل هذه القبعة الغالية جداً قبل ثلاث سنوات ثم لم يشترِ غيرها منذ ذلك الوقت، فهذا يعني أن مستواه المادي قد انخفض بالتأكيد.

- حسناً، هذا واضح بما فيه الكفاية، ولكن ماذا عن الحكمة وتدهور المعنويات؟

ضحك شيرلوك هولمز وقال وهو يضع إصبعه على قرص دائري صغير وحلقة لرباط تثبيت القبعة:

ما هو دليلي على الحكمة؛ فهذه الأشياء لا تباع مع القبعة أبداً، وبما أن الرجل قد طلب واحداً فهذا أمر يدلّ على قدر معيّن من الحكمة لأنه تكلّف العناء ليحتاط من الرياح، ولكن بما أننا رأينا أن الرباط المطاطي قد قُطع ولم يحمّل نفسه مشقة استبداله فمن الواضح أنه أصبح أقل حكمة من السابق، وهو دليل مميّز على طبيعته المتخاذلة، ومن ناحية أخرى فقد سعى إلى إخفاء بعض من هذه البقع الموجودة على اللباد بالحبر، وهذا دليل على أنه لم يفقد احترامه لنفسه كلياً.

- إن تحليلك معقول جداً.

- أما عن الأمور الأخرى (مثل أن الرجل في منتصف العمر وأن شعره أشيب وأنه قام بقصه مؤخراً، بالإضافة إلى استخدامه زيت الليمون المركز) فقد جمعتها كلها من خلال فحص دقيق للجزء السفلي من البطانة، فالعدسة تكشف عدداً كبيراً من نهايات الشعر المقصوصة بحدود واضحة بمقصّ الحلاق، وقد بدت كلها دقيقة وتفوح منها الرائحة المميزة لزيت الليمون المركز، وهذا التراب -كما تلاحظ- ليس رمادي اللون ولا يملؤه الرمل

مثل تراب الشارع، بل إنه بنّي اللون ومليء بالزغب كتراب المنزل، وهذا يُظهر أن القبعة قد عُلّقت في داخل المنزل أغلب الوقت، أما آثار البلل الموجودة في الداخل فهي دليل إيجابي على أن من يرتديها يعرق بغزارة، ولهذا فلا يمكن أن يكون في لياقة جيدة.

- وزوجته... لقد قلت إنها توقفت عن حبه.

- هذه القبعة لم تُنظَّف منذ أسابيع. ولو أنني رأيت ذات يوم -يا عزيزي واطسون- على قبعتك تراباً متراكماً منذ أسبوع، وعندما تسمح لك زوجتك بالخروج في هذه الحالة، فسوف أخشى عليك أن تكون سيئ الحظ بما فيه الكفاية بحيث تكون قد فقدت حب زوجتك!

- ولكن من الممكن أن يكون أعزب.

- لا، لقد أحضر الوزّة هديةً للصلح مع زوجته. ألا تذكر البطاقة المربوطة على ساق الطائر؟

- إن لديك جواباً لكل شيء، ولكن كيف -بالله عليك- استنتجت أن الغاز غير موصول إلى منزله؟

- لو أنني رأيت بقعة أو بقعتين من الشحم فمن الممكن أن يكون الأمر مصادفة، ولكن عندما أجد خمس بقع أو أكثر فعندها لا يبقى إلا القليل من الشك في أن ذلك الشخص يتعرض لاتصال مستمر بالشحم المحروق. قد يكون ذلك حين يصعد إلى الطابق العلوي في الليل وهو ممسك بقبعته بإحدى يديه وفي يده الأخرى شمعة... وعلى أية حال فإن بقع الشحم لا تنشأ أبداً بسبب شعلة الغاز. هل أنت راضٍ؟

قلت ضاحكاً: حسناً، إن هذه براعة كبيرة. ولكن بما أن أي جريمة لم تُرتكب -كما سبق وقلت- ولم يحدث أي أذى ما عدا فقدان الوزّة فكل ذلك يبدو وكأنه تضييع للمجهود.

فتح شيرلوك هولمز فمه ليجيب، وعندها فُتح الباب ودخل بيترسون مسرعاً إلى الشقة وخداه محتقنان وقد بدا على وجهه الذهول، وقال لاهثاً: الوزّة يا سيد هولمز... الوزّة يا سيدي!

استدار هولمز وهو على الأريكة ليحظى برؤية أوضح لوجه الرجل المنفعل وقال: ماذا عنها الآن؟ هل عادت إلى الحياة ورفرفت بجناحيها لتخرج من

نافذة المطبخ؟!

- انظر يا سيدي، انظر ماذا وجدت زوجتي في حوصلتها!

ثم مدّ يده ليظهر في كفه حجر أزرق متلألئ لامع أصغر من حجم حبة الحمص، وكان في غاية النقاء والتألق حتى ليكاد يلتمع بمثل الضياء في تجويف كفه الداكن.

اعتدل هولمز في جلسته وصفّر قائلاً: يا




رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

للعجب! إنه كنز حقيقي فعلاً. هل تعرف قَدر ما وجدته؟

- أهو من الألماس؟ إنه حجر ثمين.

- إنه أكثر من مجرد حجر ثمين عادي، إنه حجر مميّز.

صِحت قائلاً: لعله حجر العقيق الأزرق الذي فقدته الكونتيسة موركار؟

- تماماً، وقد عرفت حجمه وشكله لأنني دأبت مؤخَّراً على قراءة الإعلان عنه في جريدة التايمز كل يوم. إنه فريد من نوعه حقاً وقيمته لا تُقدَّر، وأحسب أن المكافأة المعروضة وقيمتها ألف جنيه لا تبلغ واحداً من عشرين من سعره في السوق.

سقط بيترسون على أحد الكراسي ونقل نظره من أحدنا إلى الآخر وقال: ألف جنيه؟! يا إلهي!

- إنها المكافأة، ولديّ سبب يدفعني إلى القول إن في المسألة اعتبارات عاطفية قد تقنع الكونتيسة بالتخلي عن نصف ثروتها في مقابل استعادة الحجر الكريم.

لمّحت قائلاً: لقد فُقِد في فندق كوزموبوليتان كما أذكر.

- تماماً، في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر)، وقد اتُّهم جون هورنر السبّاك منذ خمسة أيام بسرقة الجوهرة من صندوق جواهر السيدة، وقد كان الدليل ضده قوياً جداً حتى إن القضية أُحيلت إلى المحكمة. أعتقد أنني أملك تقريراً عن القضية هنا.

ثم أخذ يبحث بين صحفه وهو ينظر إلى التواريخ، حتى سحب إحداها ثم طواها بعد فتحها وقرأ ما يأتي:

سرقة جواهر في فندق كوزموبوليتان:
قُبض على السبّاك جون هورنر واتُّهم بأنه قد سرق في الثاني والعشرين الجوهرة الثمينة المعروفة باسم «حجر العقيق الأزرق» من صندوق جواهر الكونتيسة موركار، وقد أدلى جيمس رايدر، المشرف الأعلى في الفندق، بشهادة مفادها أنه اصطحب هورنر إلى غرفة ملابس الكونتيسة موركار في الطابق العلوي في نفس يوم السرقة لكي يقوم بلحام القضيب الثاني للموقد الذي كان غير ثابت.

وقد بقي مع هورنر لبعض الوقت ثم تركه بعدما تم استدعاؤه، وحين عاد اكتشف أن هورنر قد اختفى وأن المكتب قد فُتح عنوة وأن الصندوق الصغير (الذي اتضح بعد ذلك أن الكونتيسة اعتادت أن تحتفظ فيه بجواهرها) فارغ على طاولة الزينة، فأسرع رايدر لطلب النجدة وقُبض على هورنر في مساء اليوم نفسه، ولكنهم لم يجدوا الحجر معه ولا في مسكنه، كما شهدت كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة، بأنها سمعت صرخة رايدر الفزعة حين اكتشف السرقة فأسرعت إلى داخل الغرفة لتجد الأمور كما روى الشاهد.

وقد قدّم المفتش براد ستريت الدليل ليتم القبض على هورنر الذي قاوم باهتياج مؤكداً براءته. بعد ذلك قُدِّمت أدلة أظهرت أن هورنر قد جُرِّم من قبل في جريمة سطو سابقة، مما دفع القاضي إلى رفض الحكم السريع بالقضية وإحالتها إلى الهيئة القضائية. وظهرت على هورنر علامات الانفعال الشديد خلال نظر الدعوى، ثم غاب عن الوعي في النهاية فحملوه إلى خارج المحكمة.

قال هولمز بتأنٍّ وهو يرمي بالجريدة جانباً:

حسناً، دعونا من المحكمة. إن المسألة التي يجب أن نحلّها الآن هي التوصّل إلى سلسلة الأحداث التي سوف تقودنا من صندوق الجواهر المسروق في طرف إلى حوصلة الوزّة على طريق توتنهام كورت في الطرف الآخر. أترى يا واطسون؟ لقد باتت الاستنتاجات البسيطة التي توصّلنا إليها أكثر أهمية وأقل براءة. ها هي الجوهرة، وقد جاءت الجوهرة من الوزّة، والوزّة كانت مع السيد هنري بيكر صاحب القبعة الرثّة وكل المميزات الشخصية التي أضجرتك بها... وهكذا يجب الآن أن نُعدّ أنفسنا بجدّ شديد للعثور على هذا السيد والتأكد من الدور الذي لعبه في هذا اللغز الصغير. ولكي نقوم بذلك يجب أن نجرّب الوسائل البسيطة في البداية، وهي تعتمد على الإعلان في كل صحف المساء، ولو فشل هذا الأمر فسوف ألجأ إلى طرق أخرى.

- ماذا ستقول في الإعلان؟

- أعطني قلماً وقطعة من الورق، والآن ها هو الإعلان: «لقد وجدنا وزّة وقبعة سوداء صلبة من اللباد عند ركن شارع غودج، ويمكن للسيد هنري بيكر الحصول عليها لدى حضوره في الساعة

السادسة والنصف هذا المساء إلى المنزل رقم مئة وواحد وعشرين بشارع بيكر». هل هذا واضح ومختصر؟

- جداً، ولكن هل سيقرؤها؟

- حسناً، لا بد أنه سيتابع الصحف لأن ما فقده يعتبر خسارة كبيرة بالنسبة إلى شخص فقير، فمن الواضح أنه خاف بشدة من حادثة كسر النافذة وأيضاً من اقتراب بيترسون، مما جعله لا يفكر في شيء سوى الهرب، ولكن لا بد أنه يندم بشدة منذ ذلك الوقت على الاندفاع الذي تسبب في إسقاط الطائر، كما أن ذِكر اسمه سيجعله يراه؛ حيث إن كل من يعرفه سيلفت انتباهه إليه. ها هو الإعلان يا بيترسون، أسرع بالذهاب إلى وكالة الإعلان وانشره في الصحف المسائية.

- أيّ الصحف يا سيدي؟

- أي جريدة تخطر على بالك.

- وماذا عن هذه الجوهرة؟

- حسناً، سأحتفظ بالجوهرة. شكراً لك، كما أقترح أن تشتري وزّة في طريق عودتك وتتركها

عندي؛ لأن من المفروض أن يكون عندنا واحدة لنعطيها لهذا السيد بدلاً من الأخرى التي تلتهمها عائلتك الآن.

* * *

عندما غادر بيترسون أخذ هولمز الحجر وأمسكه أمام الضوء وهو يقول: إنه جميل، انظر كيف يتلألأ ويبرق، ولذلك فلا بد أن ترتبط به الجريمة كحال كل الجواهر الثمينة، فهي طُعم لأتباع الشيطان. قد ترتبط الجواهر العريقة بأعمال دمويّة، أما هذا الحجر فلم يكمل عامه العشرين بعد، وقد تم العثور عليه على ضفة نهر أموي في جنوب الصين. إنه حجر رائع لأنه يملك كل خواص العقيق الأحمر فيما عدا أن لونه أزرق بدلاً من اللون الأحمر الياقوتي، وبالرغم من قِصَر عمره فقد أصبح له تاريخ مشؤوم، فبسببه وقعت جريمتا قتل وحادثة انتحار وعدد من جرائم السرقة! مَنْذا الذي يظن أن مثل هذه القطعة الجميلة قد تكون سبباً في الوصول إلى المشنقة أو إلى السجن؟ سأقفل عليه خزانتي الآن ثم أرسل برقية إلى الكونتيسة لأخبرها أنه عندنا.

- أتظن أن ذلك الرجل هورنر بريء؟

- لا أعرف.

- حسناً، إذن فهل تتصور أن لذلك الرجل الآخر، هنري بيكر، أي علاقة بالموضوع؟

- الاحتمال الأكبر في اعتقادي هو أن هنري بيكر رجل بريء تماماً ولا يملك أدنى علم بأن الطائر الذي كان يحمله تبلغ قيمته أكثر مما لو كان مصنوعاً من الذهب الخالص. على أية حال فهذا هو ما سأتأكد منه عن طريق اختبار بسيط إذا قام بالرد على الإعلان.

- ولا يمكنك القيام بشيء حتى ذلك الوقت؟

- لا شيء.

- في هذه الحالة سأكمل جولتي على المرضى، ولكنني سأعود في المساء في نفس الساعة التي ذكرتها لأنني أحب أن أرى حلاً لتلك المسألة المعقدة.

-سأكون سعيداً جداً برؤيتك. أنا أتعشى في الساعة السابعة، ولدينا على العشاء ديك برّي كما أظن. وبهذه المناسبة ونظراً إلى الظروف الحالية

فربما يتوجب عليّ أن أطلب من السيدة هدسون أن تفحص حوصلته!

* * *

تأخرت بسبب إحدى الحالات، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف بقليل حين وجدت نفسي في شارع بيكر مرة أخرى، وبينما أنا أقترب من المنزل رأيت رجلاً طويلاً يرتدي قلنسوة إسكتلندية ومعطفاً أغلق أزراره حتى ذقنه ينتظر في الخارج في ضوء على شكل نصف دائرة يخرج من النافذة المروحية الصغيرة فوق الباب، وعندما وصلت فُتح الباب وأُدخلنا معاً إلى غرفة هولمز.

قال هولمز وهو يقوم من كرسيه ليحيّي زائره بأسلوبه اللطيف الذي يستطيع تقمّصه بسرعة: أنت السيد هنري بيكر كما أعتقد؟ أرجو أن تجلس على ذلك الكرسي بالقرب من النار يا سيد بيكر، إنها ليلة باردة، وألاحظ أنك معتاد على الصيف أكثر من الشتاء. آه، واطسون؟ لقد جئت في الوقت المناسب. أهذه قبعتك يا سيد بيكر؟

- نعم يا سيدي، إنها قبعتي بلا شكّ.

كان رجلاً ضخماً عريض المنكبين كبير الرأس، وله وجه عريض يبدو عليه الذكاء وينتهي بلحية مدبَّبة بنية اللون يكسوها الشيب مع مسحة من اللون الأحمر في خديه وأنفه، بينما أخذت يده الممتدة ترتعش ارتعاشاً بسيطاً مما ذكّرني بتخمين هولمز بالنسبة لعاداته. كان معطفه الطويل الأسود عتيق الطراز مقفولاً حتى آخره من الأمام والياقة مرفوعة إلى أعلى، ومعصماه النحيلان يبرزان من كميه دون أثر لوجود قميص أو نهايات أكمام تحت المعطف. كان يتكلم بطريقة بطيئة متقطعة مختاراً كلماته بدقّة، فأعطى انطباعاً بأنه رجل مثقّف ساءت به الحال.

قال هولمز: لقد احتفظنا بهذه الأشياء لبضعة أيام لأننا توقعنا أن نرى إعلاناً منك تذكر فيه عنوانك، وأنا في حيرة وأرغب في أن أعرف الآن لماذا لم تنشر الإعلان.

ضحك زائرنا ضحكة خجلة وقال: لم يعد المال كثيراً في يدي كما كان من قبل، ولم يساورني الشك في أن عصابة الأشرار التي هاجمتني قد أخذت كلاً من القبعة والطائر، ولذلك لم أفكر في إنفاق المزيد

من المال في محاولة يائسة لاستعادتهما.

- هذا طبيعي جداً. وبالمناسبة، لقد أُرغمنا على أكل الطائر.

همّ زائرنا بالقيام عن كرسيه بسبب انفعاله وقال: أكلتموه؟!

- نعم، فقد كان سيفسد لو لم نفعل ذلك. ولكنني أفترضُ أن تلك الوزّة الأخرى الموجودة على هذه الطاولة ستفي بالغرض، فهي طازجة تماماً ولها الوزن نفسه.

فأجاب السيد بيكر وهو يتنهد بارتياح: آه، بالتأكيد، بالتأكيد.

- وبالطبع لا نزال نحتفظ بالريش والأرجل والحوصلة وما إلى ذلك من وزتك، ولذلك إذا رغبت...

انفجر الرجل يضحك بحرارة وقال: قد أستفيد منها كتذكار لمغامرتي، ولكن فيما عدا ذلك لا أرى كيف يمكن أن تكون تلك الأعضاء ذات فائدة لي. لا يا سيدي، أظن أنني سأحصر اهتمامي بالطائر

الممتاز الذي أراه على هذه الطاولة.

نظر هولمز إليّ مع هزّة بسيطة من كتفيه، ثم قال: ها هي قبعتك إذن وهاك طائرك. بالمناسبة، هل يزعجك أن تخبرني بالمكان الذي أحضرت منه الطائر الآخر؟ أنا محبّ للطيور إلى حد ما، ونادراً ما أرى وزّة بمثل تلك الجودة.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

فقال بيكر الذي قام واقفاً ووضع ممتلكاته الجديدة تحت ذراعه: بالتأكيد يا سيدي؛ أنا واحد من الذين يترددون على مقهى ألفا بالقرب من المتحف، وهذا العام قام مضيفنا الطيّب واسمه وينديغيت بتأسيس نادٍ للوزّ يحصل فيه مَن يدفع بضعة بنسات كل أسبوع على طائر في عيد الميلاد، وقد دفعت ما يتوجب عليّ بانتظام... والباقي تعرفه. إنني مدين لك كثيراً يا سيدي، فهذه القلنسوة الإسكتلندية لا تناسب سني ولا وقاري.

ثم انحنى لنا بشكل رسمي وبخيلاء كوميدية وانطلق في طريقه.

قال هولمز عندما أغلق الرجل الباب وراءه: دعنا من السيد هنري بيكر، فمن المؤكد أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. هل أنت جائع يا واطسون؟

- ليس تماماً.

- إذن أقترحُ أن نؤجل غداءنا ليصبح عشاء، وهيا بنا لنتتبع هذا الدليل وهو لا يزال حديثاً.

- بكل تأكيد.

* * *

كانت ليلة قاسية البرودة فارتدينا معطفينا ووضع كل منا كوفيّة حول رقبته، وفي الخارج كانت النجوم تلمع في سماء خالية من الغيوم، وأنفاس المارة تنبعث كهبّات الدخان، وخطوات أقدامنا تدقّ بسرعة وبصوت عالٍ بينما ننتقل عبر حيّ الأطباء وشارع ويمبول ثم شارع هارلي، وهكذا حتى عبَرْنا شارع ويغمور ووصلنا إلى شارع أكسفورد. وفي خلال ربع ساعة كنا قد وصلنا إلى مقهى ألفا، وهو مقهى صغير عند ركن أحد الشوارع التي تتفرّع من هولبورن.

دفع هولمز الباب وطلب من المالك ذي الوجه الأحمر كوبين من الشاي الساخن قائلاً: لا بد أن يكون شايك بمثل جَودة وزّك.

فبدا الرجل مدهوشاً وقال: وَزّي؟!

- نعم، لقد كنت أتحدث منذ نصف ساعة إلى السيد هنري بيكر الذي كان عضواً في نادي الوز.

- آه، نعم، فهمت. ولكن تلك الوزّة ليست لي يا سيدي.

- حقاً؟ لمن إذن؟

- حسناً، لقد حصلت على دستتين من الوزّ من أحد التجار في كوفنت غاردن.

- حقاً؟ أنا أعرف بعضهم، فأيّهم هو؟

- اسمه بريكنريدج.

- آه، لا أعرفه. حسناً، تمنياتي لمحلك بالازدهار، وليلة سعيدة.

ثم أكمل وهو يزرّر معطفه فيما نحن خارجان إلى الجوّ الشديد البرودة: والآن هيا بنا نذهب إلى السيد بريكنريدج، وتذكّر -يا واطسون- أنه بالرغم من أن لدينا في أحد طرفَي هذه السلسلة كائناً أليفاً لطيفاً كالوزّة فإن لدينا في الطرف الآخر رجلاً سيُحكَم عليه بالتأكيد بسنوات من الأشغال الشاقة ما لم نعمل على إثبات براءته. ومن الممكن أن يُظهر تحقيقنا أنه مجرم، ولكننا نمسك -على أية حال- بخيط غفل عنه الشرطة، وبهذا فقد وُضِعت بين أيدينا فرصة نادرة، فدعنا نتتبع الأمر حتى نهايته. لنتّجه إلى الجنوب إذن ونمشِ بسرعة.

عبرنا هولبورن إلى شارع إيندل، ثم سرنا في طريق متعرج عبر الأحياء العشوائية الفقيرة

حتى وصلنا إلى سوق كوفنت غاردن، وهناك كان واحد من أكبر الأكشاك يحمل اسم «بريكنريدج»، وكان المالك الضخم يساعد أحد الصبية في إغلاق المصاريع.

قال هولمز: مساء الخير، الجو بارد الليلة.

أومأ التاجر ورشق رفيقي بنظرة متسائلة، فأكمل رفيقي قائلاً وهو يشير إلى الرفوف الرخامية الفارغة: لقد بعتَ كل الوزّ حسبما أرى؟

- يمكنك أن تحصل على خمسمئة غداً صباحاً.

- هذا لن يفيدني.

- حسناً، ستجد بعضاً منها في ذلك الكشك.

- آه، لكنهم نصحوني بك.

- مَن؟

- مالك مقهى ألفا.

- آه، نعم، لقد أرسلت إليه دستتين.

- وهي طيور جيدة أيضاً، فمن أين حصلت عليها؟

انفجر الرجل غضباً إثر هذا السؤال وقال ورأسه مرفوع وذراعاه على خصره: والآن إذن يا سيد، ما الذي ترمي إليه؟ فلتفصح بصراحة عما تريد.

- إن ما أقوله مباشر بما فيه الكفاية، فأنا أريد أن أعرف من الذي باعك الوزّ الذي زوّدت به مقهى ألفا؟

- حسناً إذن، لن أخبرك. ماذا ستفعل الآن؟

- الأمر لا أهمية له، ولكنني لا أعرف سبب انفعالك الشديد بسبب مثل هذا الأمر التافه.

- انفعالي؟! قد تشعر بنفس هذا الانفعال لو أنك تعرضت إلى المضايقة مثلي، فعندما أدفع الكثير من المال في بضاعة جيدة يجب أن ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكن الأسئلة تتوالى: أين الوز؟ ولمن بعت الوز؟ وماذا تأخذ مقابل الوز؟ عندما يسمع المرء كل هذه الجلبة يظن أنها الطيور الوحيدة في العالم.

فقال هولمز بلامبالاة: حسناً، ليست لي علاقة بأي شكل بمن يقومون بطرح الأسئلة، فإذا لم تخبرنا سينتهي الرهان، ولكنني معتاد دائماً على دعم رأيي

بخصوص الطيور، وقد راهنت بخمسة جنيهات على أن الطائر الذي أكلته قد رُبّي في القرية.

- حسناً، لقد خسرت جنيهاتك الخمسة؛ فهو من طيور المدينة.

- إنه ليس من ذلك النوع.

- وأنا أقول إنه كذلك.

- لا أصدق الأمر.

- أتظن أنك تعرف عن الطيور أكثر مني وأنا الذي أتعامل معها منذ أن كنت طفلاً؟! إنني أقول لك إن كل الطيور التي أُرسلت إلى مقهى ألفا من إنتاج المدينة.

- لن تقنعني بذلك أبداً.

- أتراهن إذن؟

- سيكون هذا لمجرد أخذ مالك، فأنا أعرف أنني على حق. سأراهن بجنيه ذهبيّ حتى أعلّمك أن لا تكون عنيداً.

فقهقه التاجر بشراسة وقال: أحضر لي الدفتر

يا بيل.

أحضر صبي صغير دفتراً صغيراً دقيقاً وآخر كبيراً غلافه ملطخ بالشحم ووضعهما معاً تحت المصباح المعلّق، وقال التاجر: والآن إذن -يا أيها السيد الواثق- كنت أظن أنني قد بعت كل الطيور، ولكن حين أنتهي ستجد أن هناك واحداً في المحل. أترى هذا الدفتر الصغير؟

- حسناً.

- هذه هي قائمة بأسماء الذين أشتري منهم، أترى؟ حسناً إذن، في هذه الورقة يوجد جماعة الريف والأرقام التي تلي أسماءهم توضّح أين تكون حساباتهم في سجل الحسابات الكبير. والآن هل ترى هذه الصفحة بالحبر الأحمر؟ حسناً، هذه هي قائمة بأسماء المموّلين في المدينة. والآن انظر إلى هذا الاسم الثالث، اقرأه لي فقط بصوت عالٍ.

قرأ هولمز قائلاً: السيدة أوكشوت، ١١٧، طريق بريكستون ٢٤٩.

- تماماً، والآن ابحث عن هذا الرقم في دليل الحسابات.

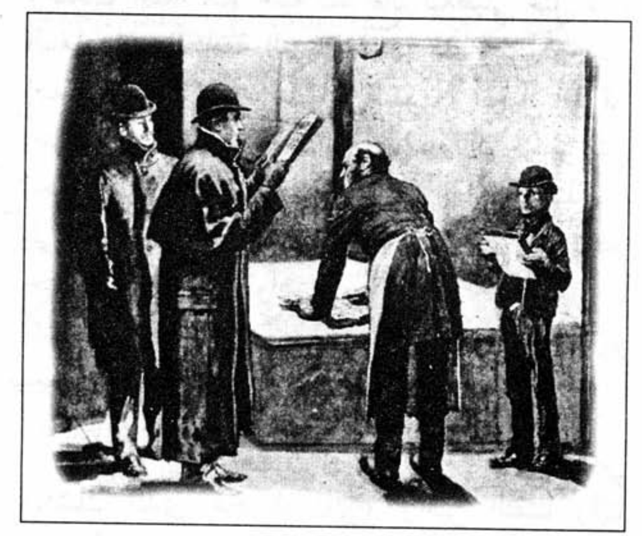
قلّب هولمز الصفحات حتى الصفحة المطلوبة قائلاً: ها هي، السيدة أوكشوت، ١١٧، طريق بريكستون، متعهدة بيض وطيور.

- والآن ماذا كان آخر يوم في السجل؟

- إنه الثاني والعشرون من كانون الأول (ديسمبر)، والكمية أربع وعشرون وزّة.

- تماماً. هذا هو، وما الذي تحته؟

- بِيعت إلى السيد وينديغيت بمقهى ألفا.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- ماذا لديك لتقوله الآن؟

بدا على شيرلوك هولمز الضيق الشديد، ثم سحب جنيهاً ذهبياً من جيبه ورماه على اللوح واستدار مبتعداً وكأنه رجل منعه الضيق من الكلام. وبعد بضعة أمتار توقف تحت أحد أعمدة الإنارة وضحك ضحكته المميزة بحرارة وبلا صوت، وقال: حين ترى رجلاً بهذا الشكل وتبرز من جيبه بطاقة وردية فأنت تستطيع دائماً جذب انتباهه عن طريق الرهان، وأجرؤ على القول إنني لو كنت وضعت أمامه مئة جنيه لما كان ليعطيني مثل هذه المعلومات الكاملة التي سحبتها منه حين أوحيت إليه أنه يراهنني! حسناً يا واطسون، أتخيل أننا قد اقتربنا من نهاية تحقيقنا، والنقطة الوحيدة التي يجب علينا توضيحها الآن هي ما إذا كنا سنذهب إلى السيدة أوكشوت الليلة أو أن علينا أن ننتظر حتى الصباح. من الواضح من كلام ذلك الرجل أن أشخاصاً آخرين غيرنا متشوقون إلى معرفة الحقائق، ويجب عليّ أن...

قطع كلامَ هولمز ضجيجٌ شديد صدر من الكشك الذي غادرناه للتوّ، وحين التفتنا رأينا شخصاً ضئيل الحجم يشبه وجهه وجه الفأر وهو

يقف في وسط الضوء الأصفر الصادر عن المصباح المعلق، بينما وقف بريكنريدج داخل إطار باب كشكه وهو يهز قبضتيه في وجه ذلك الشخص المنكمش، ثم صاح قائلاً: لقد ضقت ذرعاً بك وبوزّك، وأتمنى أن تذهبوا جميعاً إلى الجحيم! لو جئت لتضايقني ثانية بحديثك السخيف فسوف أطلق الكلب خلفك. أحضر السيدة أوكشوت وسوف أجيب على أسئلتها، ولكن ما علاقتك أنت بالموضوع؟ هل اشتريت الوزّ منك؟

قال الرجل الضئيل بتأوّه: لا، ولكن إحدى الوزّات كانت لي.

- حسناً إذن، اسأل السيدة أوكشوت عنها.

- لقد قالت لي أن أسألك.

- حسناً، لا يهمني من تسأل، ولكن اخرج من هنا فقد ضاق صدري من هذا الموضوع.

ثم أسرع إلى الأمام بعنف فهرب الرجل الضئيل من أمامه حتى ابتلعه الظلام.

همس هولمز قائلاً: حسناً، قد يوفّر علينا هذا

زيارة إلى شارع بريكستون. هيا، تعالَ معي وسنرى ماذا سنفعل بهذا الشخص.

مشينا بخطوات سريعة وسط المجموعات المتفرقة من الناس التي تتسكع حول الأكشاك المضيئة حتى لحق رفيقي بالرجل الضئيل ولمس كتفه، فجفل الرجل والتفت. وقد استطعت أن أرى في ضوء المصباح أن اللون قد اختفى من وجهه تماماً، وسأل بصوت مرتعش: من أنت؟ وماذا تريد؟

قال هولمز باسترخاء: عذراً، ولكني لم أستطع منع نفسي من سماع الأسئلة التي طرحتَها على التاجر الآن، وأظن أن بوسعي مساعدتك.

- أنت؟! من أنت؟ وكيف استطعت معرفة أي شيء عن هذا الموضوع؟

- أنا شيرلوك هولمز، وعملي هو معرفة ما لا يعرفه الآخرون.

- ولكن من المستحيل أن تعرف شيئاً عن هذا الأمر.

- اعذرني، ولكنني أعرف كل شيء عن هذا الموضوع؛ فأنت تسعى لتعقّب بعض الوزّ الذي

باعته السيدة أوكشوت لتاجر اسمه بريكنريدج، وهو بدوره باعه للسيد وينديغيت صاحب مقهى ألفا، والذي قام ببيعه إلى أعضاء ناديه الذي يضمّ السيد هنري بيكر كأحد أعضائه.

صاح الرجل بيدين ممدودتين وأصابع مرتعشة



رسم سدني باجيت ١٨٩١ — Sydney Paget 1891

قائلاً: آه يا سيدي! أنت الرجل الذي كنت أبحث عنه، ولكن لا يمكنني أن أشرح مدى اهتمامي بهذا الموضوع.

أوقف هولمز عربة بأربع عجلات كانت تمرّ بجوارنا وقال: في هذه الحالة يجب أن نناقش الموضوع في غرفة دافئة بدلاً من هذه السوق التي تهبّ عليها الرياح، ولكن ألن تخبرني قبل أن ننطلق عن هويّة الشخص الذي أسعدني الحظ بمساعدته؟

تردّد الرجل لحظة ثم قال وهو يشيح بنظره: اسمي جون روبنسون.

فقال هولمز بطلاقة: لا، لا؛ الاسم الحقيقي لو سمحت، فالمرء لا يحب التعامل مع صاحب اسم مستعار.

فتضرّج وجه الغريب الشاحب بالحمرة وقال: حسناً إذن، اسمي جيمس رايدر.

- تماماً، وأنت تعمل في فندق كوزموبوليتان. أرجوك أن تدخل إلى العربة وسأتمكن سريعاً من إخبارك بكل ما تريد معرفته.

وقف الرجل الضئيل ينقل بصره من أحدنا

إلى الآخر وفي عينيه نظرات نصفها متفائل ونصفها الآخر خائف، كمَن لا يعرف أهو على شفا هاوية أم هو قريب من ربح مفاجئ. ثم دخل إلى العربة، وبعد نصف ساعة كنا قد عدنا إلى غرفة جلوسنا في شارع بيكر. لم نُجرِ أية أحاديث في أثناء الرحلة، ولكن تنفس الرجل المتقطع العنيف والطريقة التي يفرد بها يديه ويقبضها، كل ذلك كشف عن توتّره العصبي الشديد.

قال هولمز بابتهاج حين دخلنا إلى الغرفة الواحد تلو الآخر: ها نحن قد وصلنا، والنار تبدو مناسبة جداً في هذا الطقس السيئ، فأنت تبدو مجمّداً يا سيد رايدر. أرجو أن تجلس على الكرسي، فأنا سأرتدي خفي فقط قبل أن نحسم هذا الأمر الخاص بك. والآن أنت تريد أن تعرف ما الذي حدث لذلك الوزّ، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- أو بالأحرى -كما أتخيل- لتلك الوزّة، فقد كنت مهتماً بطائر واحد، طائر أبيض وله خطوط سوداء على ذيله.

ارتعش رايدر من الانفعال وصاح قائلاً: آه يا

سيدي! هل يمكنك إخباري أين ذهب؟

- لقد جاء إلى هنا.

- إلى هنا؟!

- نعم، وقد كان طائراً في منتهى الروعة، مما يغنيني عن التساؤل عن سبب اهتمامك به. وقد وضع بعد موته بيضة، بيضة صغيرة زرقاء جميلة شديدة اللمعان، وأنا أحتفظ بها هنا في متحفي.

تمايل زائرنا واقفاً وأمسك رفّ المدفأة بيده اليمنى، أما هولمز فقد فتح خزانته وأخرج حجر العقيق الأزرق الذي لمع مثل نجم يشعّ بريقه المتلألئ في كل الاتجاهات، ووقف رايدر يحملق بوجه متوتر لا يعرف هل يطالب به أو ينكر ملكيته.

قال هولمز بهدوء: لقد انتهت اللعبة يا رايدر... تماسك يا رجل وإلا فسوف تسقط في النار! ساعده حتى يعود إلى الكرسيّ يا واطسون، إنه لا يملك القوة ليتحمّل جريمة بلا عقوبة. يا له من شخص ضعيف!

ترنح الرجل للحظة وكاد يسقط، ثم جلس يحدق إلى هولمز بعينين خائفتين.

- إن تحت يدي كل الأدلة التي أحتاج إليها، ولذلك فلا يوجد إلا القليل الذي يمكنك إخباري به، ومع ذلك فمن الجيد توضيح هذا القليل الذي تعرفه حتى تكتمل القضية. لقد سمعت -يا رايدر- أن هذه الجوهرة الزرقاء ملك للكونتيسة موركار.

قال بصوت مرتعد: أخبرتني بأمرها كاثرين كوزاك.

- آه، نعم، خادمة فخامتها. حسناً، وكان إغراء الثروة الفجائية السهلة المنال أكبرَ من قدرتك على الاحتمال مثل العديد من الرجال الأفضل منك قبلاً، ولكنك لم تكن دقيقاً في الأساليب التي استخدمتها. يبدو لي -يا سيد رايدر- أنك تمتلك صفات رجل شرّير جداً في داخلك، فقد كنت تعرف أن ذلك الرجل هورنر السباك قد اتُّهم بشيء من هذا القبيل فيما مضى وأن الشكوك ستستقر عليه بسهولة، فماذا فعلت؟ لقد قمت باختلاق مهمة بسيطة في غرفة الليدي، أنت وشريكتك كوزاك، ثم تدبرت أمر استدعائه، وبعد انصرافه سطوت على علبة الجواهر واستدعيت النجدة فتسببت في القبض على هذا الرجل التعس الحظ، فأنت إذن...

ألقى رايدر بنفسه على السجادة فجأة وأمسك بركبتَي رفيقي وهو يصرخ قائلاً: بالله عليك ارحمني... فكر في أبي، في أمي! إن هذا سيحطم قلبيهما! أنا لم أرتكب جريمة من قبل ولن أفعل ذلك ثانية... أقسم على ذلك. آه، لا تقدّم الأمر إلى المحكمة، أرجوك لا تفعل!

Sydney Paget 1891 — رسم سدني باجيت ١٨٩١

فقال هولمز بصرامة: عُد إلى كرسيك، فأنت تتذلل وتزحف الآن ولكنك لم تفكر في المسكين هورنر وهو في السجن لجريمة لا يعرف شيئاً عنها.

- سأهرب يا سيد هولمز، سأغادر البلاد يا سيدي، وعندها ستسقط التهمة عنه.

- حسناً، سنتحدث عن ذلك لا حقاً. والآن دعنا نسمع الرواية الكاملة لما حدث بعد ذلك، فكيف وصلت الجوهرة إلى داخل الوزّة؟ وكيف انتهى الأمر بالوزّة في السوق؟ أخبرنا بالحقيقة، فهذه هي فرصتك الوحيدة في النجاة.

مرّر رايدر لسانه على شفتيه الجافتين وقال: سأخبرك بما حدث تماماً يا سيدي، فعندما قُبض على هورنر بدا لي أن من الأفضل أن أبتعد ومعي الجوهرة في الحال، فقد خشيت أن أتعرض للتفتيش من قِبَل الشرطة أنا أو غرفتي، ولم أجد في الفندق أي مكان يمكنني أن أخبئ الجوهرة فيه بأمان، فخرجت كما لو كنت في مهمة واتجهت إلى منزل أختي، وهي متزوجة برجل اسمه أوكشوت وتعيش في طريق بريكستون حيث تقوم بتسمين الطيور وبيعها، وطَوال الطريق بدا لي أن كل رجل يمرّ

بي هو من رجال الشرطة، وبالرغم من أنها كانت ليلة باردة فقد كان وجهي يتصبب عرقاً قبل أن أصل إلى طريق بريكستون. وحين سألتني أختي عن سبب شحوبي أخبرتها بأنني منزعج بسبب سرقة الجوهرة في الفندق، ثم ذهبت إلى الفناء الخلفي وأخذت أتساءل عن أفضل ما يجب عمله. كنت مستنداً إلى الجدار في ذلك الوقت أنظر إلى طيور الوزّ التي كانت تتهادى حول قدمي، وفجأة خطرت لي فكرة عرفت أنني سأتغلب بها على أفضل المخبرين. كانت أختي قد أخبرتني منذ عدة أسابيع أن بإمكاني اختيار واحدة من الوزّات هدية بمناسبة عيد الميلاد، وكنت أعرف أنها تحافظ على وعودها دائماً، وفكرت أنني سوف أجد وزّتي في ذلك الوقت والجوهرة في داخلها. فأمسكت بواحدة من الوزّات، كانت سمينة بيضاء اللون وفي ذيلها خطوط سوداء، ثم فتحت منقارها وأدخلت الجوهرة في حلقها على طول إصبعي. غصّ الطائر وشعرت بالجوهرة تمر عبر المريء ثم تنزل في الحوصلة، ولكن الطائر قاوم ورفرف بجناحيه فخرجت شقيقتي لتستطلع الأمر، وحين التفتُّ لأتحدث إليها أفلت الشرس ورفرف بجناحيه مبتعداً بين الطيور الأخرى، فقالت أختي: ما الذي

كنت تفعله بذلك الطائر يا جيم؟

قلت: حسناً، لقد قلت إنك ستقدمين لي واحداً من أجل عيد الميلاد، وكنت أتحقق لأعرف أيها الأسمن.

قالت أختي: آه، لقد احتفظنا بطائرك جانباً. إنه الطائر الأبيض الكبير هناك.

قلت: شكراً يا ماجي، ولكن لو كان الأمر لديك سيّان فإنني أفضّل الحصول على تلك الوزة التي كنت أمسكها الآن.

قالت: لكن الأخرى أثقل، وقد قمنا بتسمينها لك بشكل خاص.

قلت: لا يهم، أريد تلك الأخرى، وسآخذها الآن.

فقالت وهي حانقة قليلاً: كما تريد. أيها تريد؟

قلت: تلك البيضاء ذات الذيل المخطط، إنها في وسط السرب تماماً.

فوافقت قائلة: حسناً، اذبحها وخذها معك.

وفعلت ما قالته يا سيد هولمز، ثم حملت

الطائر إلى بيتي حيث أحضرت سكيناً وشققته، وكم كانت المفاجأة كبيرة حين لم أجد أثراً للجوهرة! عرفت أنني ارتكبت خطأً فظيعاً، فتركت الطائر وأسرعت عائداً إلى منزل أختي ثم إلى الفناء الخلفي فلم أجد أثراً لأي طائر، فصِحت قائلاً: أين ذهبت الطيور كلها يا ماجي؟!

- لقد ذهبت إلى التاجر يا جيم.

- أي تاجر؟

- بريكنريدج في كوفنت غاردن.

- ولكن هل كان بينها طائر آخر له خطوط على ذيله كالذي أخذته؟

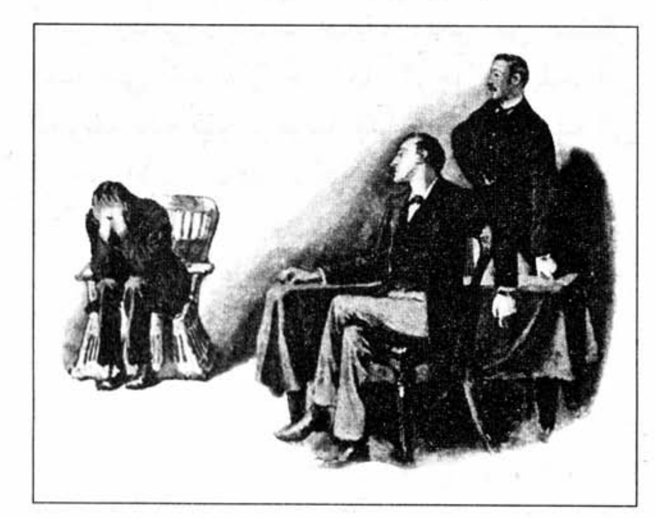
- نعم يا جيم، كان هناك طائران لهما الذيل المخطط نفسه، ولم أكن أستطيع التفريق بينهما قط.

وبالطبع فهمت الأمر كله فجريت بأسرع ما أستطيع إلى ذلك الرجل، ولكنه كان قد باع الكمية كلها في الحال، ورفض إخباري بأي شيء عن المكان الذي أُرسِلت إليه الطيور، وقد كان يردّ عليّ دائماً بنفس الطريقة التي سمعتها بنفسك الليلة. إن

أختي تظن أنني على وشك الجنون، وأحياناً أعتقد أنني كذلك، والآن... الآن أنا لصّ موصوم رغم أنني لم ألمس الثروة التي بِعت نفسي من أجلها! فليساعدني الله!

ثم انفجر في بكاء متشنّج وقد دفن وجهه بين يديه، وساد الصمت لفترة طويلة لا يقطعه إلا صوت تنفسه ودقات من أطراف أصابع هولمز على حافة الطاولة، ثم قام صديقي وفتح الباب وقال: اخرج.

- ماذا يا سيدي؟ آه، فليباركك الله!



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- لا تقل أي كلمة، اخرج فقط.

لم تكن هناك حاجة إلى الكلام، فقد سمعنا صوت قرقعة مسرعة على الدرج ثم صوت صفق الباب، تلا ذلك وقع أقدام مسرعة في الشارع.

قال هولمز وهو يمدّ يده إلى غليونه الفخاري: برغم كل شيء يا واطسون فأنا لست ملزماً بتصحيح أخطاء الشرطة. لو كان هورنر في خطر لاختلف الأمر، ولكن بما أن هذا الشخص لن يشهد ضده والجوهرة ستعود إلى صاحبتها فسوف تنهار القضية. أحسّ وكأنني ارتكبت جناية، ولكن من الممكن أيضاً أنني أنقذت روحاً؛ هذا الرجل لن يلجأ إلى الجريمة ثانية فهو مرعوب جداً، أما إذا أرسلته إلى السجن الآن فسوف يتردّد على السجن إلى الأبد! والآن إذا تكرمت بدق الجرس يا دكتور، ولنبدأ بحل قضية أخرى يمثل أحدُ الطيور أيضاً العنصرَ الأساسي فيها.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية
(٢) لغز الطرد البريدي
(٣) لغز الوجه الأصفر
(٤) مغامرة موظف البورصة
(٥) سفينة «غلوريا سكوت»
(٦) وصية عائلة موسغريف
(٧) لغز بلدة ريغيت
(٨) مغامرة الرجل الأحدب
(٩) لغز المريض المقيم
(١٠) مغامرة المترجم اليوناني
(١١) وثائق المعاهدة البحرية
(١٢) المشكلة الأخيرة



The Adventures of
Sherlock Holmes





مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل

The Adventure of
the Blue Carbuncle




ISBN 2-1957-3325-0
9782195733259